شيطان بلتشور

(المحادثة الثالثة عشرة)

قال الهدهد لما كان الغد خرجت الى الموعد الاتى النسر فى مصر ، بين الجزيرة والجسر ، وأنا مسرور بلقائه فى وطنى ، والاجتماع به بين قومى لعله ينفعنى بالتنبيه والارشاد ، ويفيدنى بالملاحظة والانتقاد ، فيما خفى على من اخلاق الرجال ، وما غاب عنى من حقائق الاحوال لان الغريب حريص على الصغيرة والكبيرة ، يرى من كل بلد يحله مالا يراه أهله ، كالنمساح لا يبصر فى الماء وهو موطنه الذى يعيش فيه ، فاذا خرج منه كان أحد الحيوان لحاظا . فكيف به مثل الاستاذ واسع العلم والدراية ، متقادم العهد على صحبة الزمان وأهله ، فبلغت النهر ، وكان الاصيل على سمائه ذهبا ، والريح على مائه لعبا ، والمنظر على فضائه عجبا ، وكان الناس يخرجون اليه موكبا موكبا ، تجرى بهم المركبات من كل طراز وشكل . فمن (بسكليت) كبساط الريح لاتراها ، وتنظر من أجراها ، تمرق كالسهم مروقا ، وتخفق كالريح خفوقا . وتنساب فوق طريق الناس فتصوت كالافاعى ذات الاجراس ، ومن (أوتوموبيل) كجنى عنيف ، ذى هبوب وعزيف ، صوتها أنكر الاصوات ، وفيها جمعت المزعجات وراكبها لا فى الاحياء ولا الاموات ، ومن (ترامواى) تنقل الاقوام من شاطىء النهر الى الاهرام ، وهى تمضى بصاحبها ثم تمضى عليه بخلاف الايام فيما ذهب الشاعر اليه :—

ما أسرع الأيام فى طينا تمضى علينا ثم تمضى بنا

ومن مركبات تنقاد باعنة الجياد ، منها مالا تسمع له حسا ولا جرسا ، كأنما يهمس فى أذن الأرض همسا ، وبعضها كالدار طبقات تتبوأ مقاعدها فيها الجماعات ، وبعضها قليل الحجم يجره فرد ويركب فيه فرد . وبالجملة وجدت متنزهات الجزيرة والجيزه حافلة بصنوف المحدثات ، جامعة لانواع المخترعات ، كأنها غاب بولونيا الشهير فى باريس ، لولا أن القوم عليها كشكول ملل ونحل وأجناس ، وأزياء وألوان ، وقد ذهبت أيام الخير وتصرمت دولة البغال ، فنسى الشيخ فى مركبته ذكر بغاله ، وكانت مجلى زينته فى ذهابه وجيئته ، وهاجر السيد الخار الى الدوكار وبرز الكبراء للناس فى الاتوموبيل وكانوا يتكمشون وقارا فى الكوبيل ، والهت البسكليت الخصى ، عن جواده العربى ، وسرجه الفضى ، وكانا زينته بالغداة والعشى ، وركبت السيدات فى مكشوف المركبات ، تجرى بهن بين أعين الجماعات ، وكن فى مثل هذه الاحوال ، لا يملن حيث يميل الرجال ، عادات

بدلت ، وأحوال تحولت ، وآية للغرب فى الشرق علت ، والقاب حضارة ومـــدنية لاشرقية ولاغربية

(قال) فلما صرت على الجزيرة تقصيت النظر أنشد النسر عليها فرأيت من بعد درويشا قد خلا بنفسه فى ناحية وهو يستقبل النيل ويديم النظر اليه . فوجدت ريح النسر الأول وهلة ـ وتقدمت اليه فقلت سعد النيل بشاعره فى الزمان الاول يامولاى، قال وسعدنا به يا بنى ، إنه سمو ل الانهار ، الوافى على الادهار الجارى بالليل والنهار . عبد قديما وأله وقدس وجه الدهر ، ونزه وآوى النبيين فى المهد صبيين، فجرى التابوت فيه بموسى . وبلغ العظام لديه عيسى . ولا يعلم إلا مجريه كيف انفجر، ثم جرى وانحدر ، ثم كفلته الشمس والمطر، وكم قرية غمر، واخرى دمر ، وهيكل بث وديانة قبر . وكم أفنى من زمر، ممن نهى وأمر، وتكهن وسحر، وفتح وانتصر، ألا وانه المنهل العذب اقتتل عليه القاهرون فوق البشر فانتهى اليه قيز بغارانه ، فالاسكندر بفتوحاته، فقيصر بانتصاراته، فابن الخطاب بغزواته، فسليم بحملته، فنابليون بتجريدته .

هذا يابنى حظه من التاريخ لاينافسه فيه نهر ، ولا يزاحمه عليه بحر ، على ان حظه من الطبيعة أوفر ، وقسطه من نعمائها أكبر شمس تزهر ، وافق أنضر ، وواد أخضر وجو لايستعر ولا يخصر، ونسيم يخطر، ومطر يندى، ورزق بأيسر السعى يحضر، وسهل صعب على العدو ، ولجة تستعصى عليه على مابها من هدو ، لو وجد من يمنعه من الدنو .

وفوق هذا وذاك هو القائم على هذا الناس بالاقوات اذا فاض أحيا واذا غاض أمات، ولا يزال يأخذ من البر من البحر، فتتسع مصر بفضله من سهل وواد، وقرى وبلاد .

قال الهدهد فشغفنى هذه الكلمة فى النيل، وودت لو لم يختصر النسر من هذا البحث الجليل، وان يك أتى بالكثير فى القليل ، وكان قد التفت فرأى المراكب تموج على تلك المروج ، فسألنى لعل هذه مصر القديمة ونحن على ثغر اطفيس، قلت وما ثغر اطفيس يامولاى. قال ثغر كان لنا على البحر ـ قامت (فوة) مكانه اليوم ـ وكان للاجانب لا يؤذون لهم ان يسكنوا سواه ، ولا يسامحون فى الخروج منه الى غيره من نواحى القطر .

قلت بل نحن فى عاصمة البلاد يامولاى، وهؤلاء هم مقترفوها من اهلين واجانب.

قال وما هذه المطايا التى لا تجوع ولا تظمأ ، وكيف تسمونها ؟ قلت هذه محدثات الغربيين تجلب الى مصر فيتهافت الاغنياء على اقتنائها، ولم يتفق علماء اللغة على تسميتها حتى الآن. ولعلهم لا يتفقون . فان القوم اخترعوا الاوتوموبيل من كل حجم وشكل واتخذوا منها دوارع فى البر ونحن لا نرضى عمن سماها السيارة ولا عمن دعاها بالجوالة ،

قال النسر اللساني يابني من حيث هو مضغة مرآة الصحة ، ومن حيث هو اللغة مرآة الامة ، ولاغرابة في أن تعهد بكم اللغة وتخونكم في ميسور الامر وعسيره ، فهي انما تأخذ بنصيب من هذا النقص العام، وتتأثر بهذا العجز الشامل لانها للعلم مثل الظل للشبح تتضاءل بتضاؤله وتطول بطوله

والعلم في التجارة وفي الصناعة وفي الزراعة مثل ماهو في الشروح والمتون . وفيما يسمونه الفنون الجميلة فكلما ظهرت آثاره على هذه الاشياء في مجموعها، اتسعت اللغة من مادة وازدادت من حياة، وتهذبت على الزمن ، وحسبت على ناموس الارتقاء ، يقتادها بأزمته ويجري بها في اعنته

هذه يابني هي الحياة الحقيقية للغات وماسواها فهوم ، ووجود أشبه بوجود الاجسام المحنطة يظن بها حفظ وهي وان طال المدى ستبيد

قلت انك لتنعى يامولاي ، قال ومن أنعى ، قلت اللغة العربية ، فقد حيل في التعليم بينها وبين العلم الذي تزعم أنه للغات كالروح للجسم

قال وماذا يحول بينهما قلت الحكومة في مدارسها، والكتاب في منشأتهم، والعلماء في مؤلفاتهم، والجرائد فيما تنشر كل يوم . فاما الحكومة فقد استقر عند القابضين على أزمة التعليم من رجالها في السنين الاخيرة ان اللغة العربية لحقت باللغات الغابرة ، وأنها في واد وعلوم هذا العصر في واد . ولا يزالون على هذا الرأي وفي هذا السعي حتى ييئس مابين اللغة العربية وبين العلم ، ولا يكون بعيداً حتى تعدم من يعلم قواعد الحساب فيها ، أو يعلمها الناس بها . وأما الكتاب فقد قل من جمع منهم بين العلم والبيان وهم المشهورين منهم بالاجادة في الوصف والتصوير وانتقاء اللفظ والاحتيال على المعنى واتباع الشعراء في الهيام ومزاحمتهم على الخيال، حتى ضاع محل الكتابة العلمية بين منشآت الكتاب، وخلا أكثرها من حقيقة ، التاريخ وروح الفلسفة ، ونبذت فيه العلوم الطبيعية وهجر الطب والفلك وغير ذلك مما له في اللغة العربية أساس طال عليها الأبد وغيرها الترك والاغفال .

وأما العلماء في مصر فأبعد الناس عن معرفة في اللغة أو تمكن من أدبها ، يمتلىء دماغ أحدهم من العلم ويتغرب في سبيله، وينفق الايام في تحصيله، وإذا ألف بعد ذلك لم يتوقف فيما يعرض على أبناء العربية بين صحة التقرير، وسلامة التحرير، ولا استحي يامولاي أن أختص بالذكر في هذا المقام ، أولئك الالوف ممن خرج أو يخرج من الازهر وهم علماء الدين المتفقهون فيه ، أحوج ماكان الخواص والعوام إلى كتابتهم مجيدين يبينون للامة مواضع الحكمة في أحكام الدين ليقروها في أذهان الخاصة

ويقربوها من عقول العامة ، ومع ذلك لم يقم من بينهم حتى الآن إلا ثلاثة أو أربعة يروجون لمثل هذا النفع . ومن البلية أنهم بهذا الفضل محسودون ، ومن أجله ممقوتون . رب مدرس يامولاى تقلب على أعمدة الازهر ، وافنى الطلبة طبقة بعد طبقة ، وإذا أراد أن يكتب إلى ولده فى بعض الشئون عانه القلم ، وكتب مالا يفهم ، وكان فى رسالته أنكر خطا وأكثر خطأ ، من شاب أرسل إلى الغرب فى أول الصبا ، كلما دعاه داع ليكتب الى أبيه بالعربية ، وأما الجرائد يامولاى فشغولة فى الغالب بسفاسف السياسة عن كل شغل منصرفة عن وجوه الخدمة الحقيقية لايهمها إحياء اللغة بالعلم ولا يعنيها نشر العلم باللغة ، وشتان ما بينهما فى ذلك و بين الصحف الغربية التى هى من التمكن ، وكثرة الانتشار ، بحيث تلحظ احوال الزمن كل يوم ، وتنظر فى سياسة العالم بأسره . ومع ذلك فالأهم عندها المقدم من واجبات الصحافة ، انما هو ترقية الآداب ونشر العلم بين الجماعة والبحث فيما يجد منه ويكتشف فيه بحثا مدققا ربما كانت فيه من قرائها بمنزلة الاساتذة من تلاميذهم .

قال الآن علمت ان الناس فى الاساس ، ثم التفت والتفت فبدأ له و راء النهر قصر عليه بهاء و رونق : وان لم يكن بالسدير ولا الخورنق ، فأومأ اليه وسألنى لمن الدار ؟ قلت لزعيم الاحتلال ، والرقيب على جماعة الرجال ، يعده الانجليز فى جملة عظمائهم ، و يختلفون الا فيه ، و يرمقون بناء لهم فى الاستعمار بنيه ، تخير هذه البقعة ، ثم بنى فوقها تلك الدار ، فبنى الكثيرون على الآثار . حتى جاورها من ليس لها بجار ، وكثر عليها فى الزيارة من كان يجادل فيها الزوار ، واصبحت هذه الناحية وفيها اعتبار هنا الفلاح المصرى ، وهنا المستشار ، فلم يكن من النسر الا أن ابتسم ، ثم قال لا احتلال ، فدهشت من هذا الجواب . وقلت أمازح يامولاى أم أنت لم تفهم مقالى ؟ قال بل أنت الذى لم تفهم ، فلا تجادلنى حتى تعلم ، وفى هذه الاثناء مرت مركبة صغيرة يجرها جواد واحد ، يمسك عنانه شاب من الانجليز ، لا أبهة على ركابه ، ولا زخرف على ثيابه ، فيه حشمة و وقار ، وعليه التواضع آثار ، حمل على احدى عينيه زجاجة ، فابرقت تحتها وترك الاخرى تتمثل بقول المتنبى :—

هو الجد حتى تفضل العين أختها : فجعلت أنظر اليه فسألنى النسر من هذا الذى شغلك رؤيته ؟ قلت هذا مستشار المالية يامولاى ، له المحل الثانى فى الاحتلال ، وهو على خزائن مصر يدبر المال ، ويشرف على الجليل والحقير من الاعمال . فتبسم النسر ثم قال لا احتلال ، فقضيت العجب من هذا الاصرار ، على الانكار ، وقلت أتريد يامولاى أن آتيك بدليل على النهار ، قال لا ، بل أريد أن تصبر معى ، وهناك اقتربت منا مركبة فيها

ضابطان كأنهما ساريتان ، عليهما حلتان حمراوتان ، وهما يشيران بوجهيهما نحو السماء تعاظماً وعزة . فسألني النسر عن الجند ؟ قلت وما انتفاعك يا مولاي بسؤالي اذا كان الجواب لا يقنعك ، قال لعلها من جيش غريب ، قلت وهو جيش الاحتلال له في كل ناحية من القاهرة معسكر ، وكل واحد من جنوده علم انكلترا الذي لا يمس ، وسيفها الذي لا يحس ، وقد بولغ لهم في الرعاية والحيطة ، فجعلوا فوق القوانين كلها في البلاد ، وانشئت من أجلهم محكمة مخصوصة يحاكم المعتدون عليهم أمامها . فتبسم النسر كعادته ثم قال لا احتلال .

فكتمت غيظي وغلبت النفس على غضبها ، وقلت لا سبيل يا مولاي الى الجحود ، بعد ما رأيت الجنود ، قال مثل البلاد ، تراها أنت بعين وانظرها أنا بعين كالمريض بين العائد والطبيب ، ينظر الاول الى جسمه الناحل وقوته الواهنة ، وعينه الغائرة ، وشفته الذابلة وعرقه المنصب ، ويسمع زفراته المتصاعدة ، وانينه المتتابعة . فيرق له ويرثي ويتوجع ثم يخرج من عنده وليس المرض في اعتقاده الا ما رأى بعينه وسمع باذنه . فاذا سأله سائل ماذا بصاحبك قال بجسمه نحول وبشفته ذبول ، ووصف سائر ما شاهد من الاعراض ، ويكون الطبيب في هذه الاثناء قد نظر لسان المريض ثم جس نبضه ، ثم قعد يقرع ويتسمع ، ثم انصرف يقول في نفسه داؤه كذا ودواؤه كذا . وقد كنا يا بني أمة تسعد يوماً وتشقى يوماً وكانت لنا دولة تعلو حيناً وتسفل حيناً . حكم الاجانب فيها مراراً ، فلا أذكر أنهم حكمونا يوماً ونحن أمة كلتا يدها أدوات الحياة ، أو سلبونا دولتنا وهي في منعة وامكان قائمة على حقيقة الملك والسلطان . فعلل الامم إذاً باطنية لا يرجى فيها الشفاء حتى تعالج في مواطنها وما قام هذا العالم منذ قام الا على هذه القاعدة ، كل ضعيف الركن مضطهد ، وهي تسري على الحجارة والنبات ، كما تسري على الحيوان والانسان . فالجبل يجذب اليه الذر ولا يجذب هذا اليه الجبل ، والسرحة تزهق الحشائش ولا تزهقها هذه ، والذئب يفترس الخل وأن يكون له فريسة ، وكذلك الناس جهلاؤهم لعقلائهم تبع ، وضعفاؤهم لأقويائهم خدم . سنة الدهر في بنيه وشيمة قديمة فيه

فالاولى بالذين يتصدون لتلك الامم المسترقة ، وتحرير الشعوب المملوكة ، أن يعلموا أن قيود الحديد لا تعالج إلا بمبارد الحديد . فالعقل لا يقاوم إلا بالعقل والقوة لا تستدفع إلا بالقوة ، والناس منذ وجدوا رأس وذنب . والدنيا مذ كانت لمن غلب .

قلت أفدت يا مولاي وأرشدت ، ولكن هذا كله لا ينفي وجود احتلال أجنبي في البلاد أريتك آثاره فأنكرتها ، ولم تذكر السبب في الانكار . قال الهدهد فجعل الاستاذ يتثاءب ويدخل في السنة المعهودة ثم قال كلمته المألوفة

اذا جاء الليل ذهبت الشياطين. وسألني بعد ذلك أين الملتقى غدا؟ قلت على الازبكية يامولاى. قال الآن لك وكر ولى وكر، فلن يجمع الليل الهدهد والنسر

ثم احتجب عيانه وذهب شيطانه فانثنيت فيمن انثنى من الجزيرة، وانا اذكر ما كان، وأخشى أن يكون فى البلاد احتلالان، من روس أو ألمان، أو صين أو يابان، وهى. بحمد الله مذكانت لاتضيق بنازل ولا تبكى على راحل. ولكن قلت فى نفسى ليس بعد خفى الاشارة الا جلى العبارة. وما تجاهل النسر إلا وفى نفسه أمر، فقد عودنى منذ انعقدت بين شياطيننا الالفة أن يجد فاحسبه يهزل ويهزل فأخاله يجد، وأن يتوضح آونة ويكتم آونة ويقتضب تارة ويسترسل تارة ويعلم حينا ويتجاهل حينا. وانا إنما أتأدب بأدبه، وأذهب بالمحادثة فى مذهبه، وأصبر على مرافقته، وموافقته لانه عالم يصحب على علاته وحكيم يحب فى جميع حالاته. واذا انقلت الى الناس أحاديثه فانما انقلها كما هى ليأخذوا الدر ويذروا المحتاب، ويدخلوا ظلمات المعدن على الذهب. على أنى أنبه من تهمهم هذه المحادثات من القراء الى ايام النسر فى مصر، لانها انما تتناول الحالة الحاضرة ولا مستقبل لقوم لايهمهم حاضرهم